سيميائيات الجسد الموشوم في الثقافة الأمازيغية

د. عبد اللطيف أحرشاو

باحث في الأدب الأمازيغي والتاريخ والدراسات الثقافية

د. عبد النبي اعزيزي

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول بوجدة

خريج جامعة السوربون بباريس، تخصص: اللسانيات

المغرب

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحليل دلالات الوشم في الثقافة الأمازيغية من منظور سيميائي–أنثروبولوجي، من خلال قراءة الجسد الموشوم باعتباره فضاء رمزيا تتقاطع فيه المعاني الاجتماعية والثقافية والطقوسية. وينطلق المقال من فرضية مفادها أن الوشم لا يمثل مجرد ممارسة جمالية، بل يشكل نظاما من العلامات يعكس تمثلات المجتمع الأمازيغي للجسد والهوية والذاكرة الجماعية. وتعتمد الدراسة على تحليل الرموز الوشمية المتداولة في عدد من البيئات الأمازيغية، مع ربطها بسياقاتها الاجتماعية والتاريخية ووظائفها الرمزية، مثل الحماية الرمزية، وتأكيد الانتماء، وتحديد المكانة الاجتماعية، إضافة إلى علاقتها ببعض طقوس العبور والمعتقدات الشعبية.

كما يناقش البحث التحولات التي عرفتها هذه الممارسة في ظل التغيرات الاجتماعية والثقافية المعاصرة، حيث انتقل الوشم من وظيفة اجتماعية ورمزية واضحة إلى علامة ثقافية تعكس إعادة تشكيل الهوية في السياقات الحديثة. وتخلص الدراسة إلى أن الجسد الموشوم يمكن قراءته كنص ثقافي غني بالعلامات، يتيح فهم البنية الرمزية للمجتمع الأمازيغي وتحولاته، ويبرز أهمية المقاربة السيميائية في دراسة الممارسات الجسدية داخل الأنساق الثقافية.

Abstract:

This study aims to analyze the meanings of tattooing in Amazigh culture from a semiotic–anthropological perspective by examining the tattooed body as a symbolic space where social, cultural, and ritual meanings intersect. The article is based on the assumption that tattooing is not merely an aesthetic practice but rather a system of signs that reflects Amazigh representations of the body, identity, and collective memory. The study relies on the analysis of tattoo symbols found in several Amazigh communities, linking them to their social and historical contexts as well as to their symbolic functions, such as protection, affirmation of belonging, and the expression of social status, in addition to their relation to certain rites of passage and popular beliefs.

The research also discusses the transformations that this practice has undergone in light of contemporary social and cultural changes, where tattooing has shifted from a clearly defined social and symbolic function to a cultural marker reflecting the reconfiguration of identity in modern contexts. The study concludes that the tattooed body can be interpreted as a cultural text rich in signs, enabling a deeper understanding of the symbolic structure of Amazigh society and its transformations, while highlighting the relevance of the semiotic approach in the study of bodily practices within cultural systems.

مقدمة

يعد الوشم أحد أبرز التعبيرات الرمزية في الثقافة الأمازيغية، حيث لا يختزل فقط في كونه ممارسة تجميلية، بل يتجاوز ذلك ليغدو نظاما دلاليا متكاملا ينطوي على أبعاد اجتماعية، دينية، وهوياتية. فالوشم كما تجلى عبر قرون من التقاليد الشفوية والرمزية، شكل وسيلة للتواصل الصامت بين الأفراد والمجتمع، وعبر من خلاله عن الانتماء القبلي، والحالة الاجتماعية، والموقع الجندري، وحتى عن المعتقدات الروحية والميثولوجية. ولم تكن الرموز المستخدمة في الوشم اعتباطية، بل جاءت محملة بإرث من المعاني المستبطنة التي تختلف باختلاف المواقع الجغرافية والسياقات الثقافية. من هنا، فإن دراسة الوشم في الثقافة الأمازيغية تقتضي تفكيك بنيته السيميولوجية والاجتماعية، واستجلاء ما ينطوي عليه من رموز تتفاعل فيها الذاكرة الجمعية مع أنماط العيش، وتتمفصل من خلالها تمثلات الجسد والهوية والمقدس في المجتمعات ا لأمازيغية التقليدية.

يعد الوشم في الثقافة الأمازيغية ظاهرة رمزية متعددة الأبعاد، تستدعي قراءة أنثروبولوجية دقيقة وسوسيولوجية معمقة لفهم تمظهراته وتجلياته في السياقات الاجتماعية والتاريخية المختلفة. فالوشم لم يكن مجرد زينة جسدية، بل كان يجسد خطابا ثقافيا مشفرا تتقاطع فيه دلالات الانتماء، والهوية، والمعتقد، والنوع الاجتماعي، وضمن المجتمعات الأمازيغية التقليدية، شكل جسد المرأة على وجه الخصوص فضاء مفضلا لتجسيد هذه الرموز، حيث كانت النقوش تحمل رسائل اجتماعية تفصح عن الحالة الزوجية، والخصوبة، والانتماء القبلي، بل وأحيانا عن قوى حماية خارقة ذات طابع روحي. ومن هذا المنطلق، فإن دراسة الوشم ليست فقط بحثا في الرموز، بل هي قراءة في ممارسات الجسد، والتمثلات الثقافية التي تنظم العلاقة بين الفرد والجماعة، بين المقدس والمدنس، وبين الذكوري والأنثوي داخل البناء الرمزي الأمازيغي، ومن هنا نطرح الإشكاليات التالية:

كيف يمكن فهم الوشم في الثقافة الأمازيغية باعتباره نظاما رمزيا يعبر عن البنية الاجتماعية، والهوية الجماعية، وتمثلات الجسد والنوع الاجتماعي "الجندر"، في ظل التحولات الثقافية والدينية التي عرفها المجتمع الأمازيغي؟

وإلى أي مدى تبرز دراسة هذه الممارسة التقليدية العلاقة بين الرمز والجسد، في مجتمع شفوي يعيد إنتاج معانيه عبر العلامات البصرية والطقوس الجماعية؟

المحور الأول: الوشم بين الامتداد التاريخي والدلالة الرمزية

يحمل الوشم دلالات متعددة في اللسان العربي، إذ يذكر في معاجم اللغة باعتباره غرزا يحدث في الجلد بواسطة الإبر، يصبغ بعدها بمادة تبرز الأثر، ويطلق عليه "وشما" أو "وشاما"[1]. وقد ورد الوشم في المعجم الوسيط على أنه غرز الجلد بإبرة ثم ذر الدخان والشحم عليه لتصير منه رسوم وخطوط[2]. وعن الجوهري في الصحاح أن وشم اليد وشما، إذا غرزها بإبرة ثم ذر عليها النؤور وهو النيلج، ويقال وشم: يشيم ومعناها وشم يوشم والاسم كذلك الوشم، والجمع الوشام، واستوشمه أي سأله يشتمه، وعند الأزهري في كتابه تهذيب اللغة قيل: وشمت تشم وشما فهي واشمة، والأخرى موشومة ومستوشمة وعن ابن شميل الوشوم والوسوم تعني العلامات[3].

تطرح مسألة أصل مفردة "الوشم" في إطار البحث اللغوي باعتبارها جزءا من التراث الثقافي اللامادي الذي يحيل على ممارسة قديمة، ذات امتدادات تاريخية في مختلف الحضارات. ففي معاجم اللغة العربية، يفسر الوشم على أنه غرز بالإبرة يلون بعده الجلد، وغالبا ما يستعمل

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج 12، 1412هـ-1992م، بيروت، ص 368-369.

[2] معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، 2004، ص 216.

[3] البهلنسي عفيف، النقد الفني وقراءة الصورة، القاهرة: دار الوليد، 1997، ص 138.

لأغراض تجميلية أو رمزية[4] ويورد ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث والأثر" أن مفردة "وشم" تعني العلامة التي تغرز في الجسد وتلون، وتعد من المظاهر الجسدية التي كانت شائعة في المجتمع الجاهلي، قبل أن تصبح موضوعا للتنديد بعد الإسلام[5].

ويذكر ابن قتيبة في "عيون الأخبار" أن النساء كن يتوشمن للتزين، ويضاف الوشم إلى مواطن الجمال كالخد أو الذراع، ويستخدم الحبر أو الفحم في حشو الغرز[6]. وقد يوشم الجسم كاملا، في عملية تحمل طابعا احتفاليا واجتماعيا، لها طقوسها ودلالاتها. ويفسر المحدثون هذا الفعل من منظور لغوي واجتماعي. فالوشم يحمل في ذاته بعدا رمزيا، يشير إلى الهوية والانتماء، بل وقد يؤسس أحيانا لهوية قبلية أو جغرافية كما يتداول في الحديث الشريف ما يشير إلى انتشار مما يدل على الطابع الشائع لهذه الممارسة في المجتمعات الأمازيغية/العربية القديمة، بالرغم من التنديد الديني بها[7].

يعد الوشم نموذجا رمزيا ضمني يتجاوز حدود الجماليات الفنية، ودوائر التنميط السلوكي المستجيب لحاجيات بعينها، إلى إرسالية تساهم في نقل استعمالات الجسد الاستعارية لأجل خلق حوار مع الآخر[8]. كما أن عملية نقش لرمز مرسوم على البشرة، يمثل نوعا من الكتابة الدائمة لثباته على البشرة، أو يمثل نوعا من الرسوم الزائلة، لكونه يعبر عن فترة محددة من الحياة، حيث يحدث خدشا وإصابة على الجسد فيبرز على الجسم الرمز والصورة، بمعنى أنه يقع ما بين تقاطع ثنائي يجمع بين الخيال والرمزي[9].

أما من الناحية اللسانية المقارنة، فقد أشار بعض الباحثين إلى أن أصل الكلمة يعود إلى اللغات الغربية، وتحديدا إلى الكلمة الإنجليزية tattoo، المشتقة من كلمة بولينيزية tatau التي تعني "العلامة الدائمة" أو "النقش الجلدي". وذكر أن ظهور هذه الكلمة في المرجع الإنجليزي لأول مرة يعود إلى القرن الثامن عشر، حين استخدمها البحار

ج. كوك خلال رحلاته الاستكشافية بين عامي 1772 و1775، حيث لاحظ أن سكان بعض الجزر كانوا يزاولون عملية الوشم باستخدام أدوات بدائية كالإبر أو المحارق[10]

ويعتقد أن هذه الكلمة دونت في سجلات الرحلة نفسها، ثم انتقلت إلى اللغات الأوروبية الأخرى، ومنها إلى اللغة الفرنسية "tatouage"، لتستقر في المعجم العربي المعاصر عبر الترجمة الصوتية. وقد شكلت هذه المفردة مدخلا لتداول مفهوم الوشم ضمن المدونة اللغوية الغربية، قبل أن تعاد استعارته بمعان مختلفة داخل السياقات الثقافية الأخرى.

تظهر الدراسات الأثرية والأنثروبولوجية أن الوشم ممارسة قديمة جدا تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وتؤكد شواهد متعددة وجوده بين قبائل السكان الأصليين في الأمريكيتين، كما هو الحال عند سكان كوبا الذين وصفهم كريستوف كولومبس سنة 1492، حيث لاحظ علامات على أجسادهم، تحدث عنها ماركو بولو كذلك عند سكان قرى صغيرة في أمريكا الجنوبية، ما يدل على قدم الظاهرة واتساع رقعتها الجغرافية[11].

ويشير الباحثون إلى أن الوشم كان موجودا في الحضارات القديمة مثل الهندية، والسومرية، والفرعونية، والآشورية، والكلدانية، وكان سابقا لظهور الملابس كوسيلة للتزيين أو الحماية. فالإنسان البدائي الأول، بحسب بعض الروايات، نقش على جسده رموزا دالة على القبيلة أو الطبقة

---

[4] ابن منظور، م.س، ص 368-369.

[5] سوسن عامر، الوشم في الفن الشعبي، مجلة التراث الشعبي، عدد 9 السنة التاسعة 1987، ص 32.

[6] نفسه، الصفحة نفسها.

[7] فؤاد كاظم، الوشم دراسة تاريخية في التقاليد الدينية، مجلة الماورديات العلمية، ع 6، السنة 1979، ص 8.

[8] يخلف فايزة، التواصل غير اللغوي: الدلالة الثقافية للوشم عند المرأة القبائية، مجلة الممارسات اللغوية، ديسمبر، 2017، ص 216.

[9] كركوش فتيحة، مدخل أنثروبولوجي لممارسة الوشم، مجلة العلوم الإنسانية، 2015، ص 258-259.

[10] فؤاد كاظم، الوشم دراسة تاريخية في التقاليد الدينية، مجلة الماورديات العلمية، العدد 6، السنة 1979، ص 8.

[11] نفسه، الصفحة نفسها.

أو حتى مراحل عمرية مختلفة. ويطلق البعض على هذه العلامات اسم "البطاقة البيولوجية" أو "الاسم البدائي"، الذي يعرف به الشخص داخل جماعته.

وفي المجتمع الأمازيغي، لا تزال بعض النساء يمارسن الوشم، وتستخدم أدوات تقليدية كالإبر والصبغات الطبيعية لإحداث الأثر على الجلد. وتحمل هذه العلامات دلالات متنوعة، منها ما يخص التجميل، ومنها ما يرتبط بطقوس التخصيب أو الوقاية من الأرواح الشريرة، كما في بعض المناطق الريفية حيث يعرف باسم "الوشم العلاجي "الذي ما يزال يمارس إلى اليوم في بعض البوادي. ويعبر الوشم عن ثقافة بصرية تختزل جوانب من النظام الرمزي داخل الثقافة الأمازيغية، وإن أردنا تفكيك هذه الظاهرة، فينبغي تتبع مكوناتها الدلالية والاجتماعية على حد سواء، لفهم أبعادها كظاهرة سيميولوجية تدمج الجسد بالثقافة[12].

المحور الثاني: الوشم في النسق الثقافي الأمازيغي

يعد الوشم في الثقافة الأمازيغية أكثر من مجرد زينة جسدية؛ إنه ممارسة رمزية متجذرة في أنساق اجتماعية وثقافية عميقة. فالوشم مرتبط ارتباطا وثيقا ببنية المجتمع الأمازيغي، بما في ذلك معتقداته وعاداته ونظمه الرمزية والدينية. وغالبا ما يستخدم كوسيلة لإبراز الانتماء أو الهوية، أو كأداة للحماية من الأرواح الشريرة وفقا للمخيال الجماعي الأمازيغي، وهو ما يجعل من الوشم ممارسة مفعمة بالدلالات الرمزية. حمل في مدلولاته أبعاد ثقافية واجتماعية شديدة التعقيد كونه غامض في تاريخ ظهوره في بلاد المغرب القديم، فضلا عن الإيحاءات التي حملها بين القدسية الدينية أو الاحساس بالأمان من الشرور التي تتربص به، حيث يظهر في شكل خطوط أو علامات أو رموز هندسية مختلفة[13].

فالوشم يعبر عن تصور ميثولوجي واجتماعي تجسده علاقة الإنسان الأمازيغي بعالمه، ويحمله دلالات متنوعة، من بينها دلالات جنسية تمارس ضمن طقوس محلية، خاصة لدى النساء، أو دلالات حامية في غياب المؤسسات الطويلة لحفظ النظام الاجتماعي، كما تظهرها بعض التصورات المتصلة بالخصوبة والزواج[14].

وفي هذا السياق، لا يستبعد أن يكون الوشم بمثابة تعبير طقسي يمارس تحت تأثير معتقدات دينية أو سحرية، كما هو الحال في بعض المناطق الإفريقية التي استخدم فيها الوشم كدرع وقائي ضد الأرواح أو الأمراض. وغالبا ما يجسد الوشم بعدا اجتماعيا ضمن سياق المعتقد الجماعي، وقد يكون ذا أبعاد دينية أو روحية، كتلك التي تربطه بالقوى الخارقة أو بالمقدس. للوشم فوائد سحرية أخرى مرتبطة بالإحساس بالأمان وإبعاد العين الحاسدة والحماية من أذى مرتقب، أو من الأمراض العصبية والنفسية لهذا تلجأ الأمهات إلى وشم أطفالهن في مناطق بارزة من الجسم مثلا[15].

لم تكن الزخارف التي تنقش عبر الوشم في الثقافة الأمازيغية مجرد أشكال تجميلية، بل حاملة لمعان عميقة؛ فالبعض منها مستمد من رموز نباتية أو حيوانية، ويعتقد أنها تضفي حماية أو قوة على حاملها. كما يلاحظ أن بعض الوشوم كانت تشكل بحسب ترتيب معين، يرمز أحيانا إلى الوضعية الاجتماعية أو الطقسية، كما هو الحال في وشم الجبهة أو الذقن أو الكف. فيوشمون أبدانهن برسوم هندسية أو نقاط وهي توحي بدلالات رمزية أو طقوسية[16]. وما يزال الوشم في شمال إفريقيا يمارس جزئيا رغم تراجعه بعد دخول الإسلام وتأثير تعاليمه. وقد تأثر الوشم الأمازيغي بالممارسات الرومانية والمسيحية، وانتقل بدوره إلى ثقافات أخرى بفعل التفاعل الحضاري[17].

---

[12] لبيب الخضرا، الوشم ووحدة المتخايل العربي، مجلة التراث الشعبي، العدد 10، 1980، ص 182.

[13] Herbert (j), les tatouages Nord African, R.a.f, vol 72, 1931, p 66-77.

[14] لبيب الخضرا، م.س، ص 182.

[15] Gsell (S), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, VI, Hachette, Paris, 1929, p 11-12.

[16] Gobert, E.G, Remarques sur les tatouages Nord Africans, R. Afr, 1956, p 501-522.

[17] لبيب الخضرا، م.س، ص 182.

يمثل الوشم الأمازيغي نظاما بصريا تعبيريا يجسد القيم الرمزية والاجتماعية داخل الثقافة الأمازيغية، وتكشف بعض الدراسات الأنثروبولوجية أن الممارسة الوشمية لم تكن مجرد تزيين للجسد، بل كانت تؤدي وظيفة تواصلية بين الفرد والجماعة، وبين الذات والمقدس. فهي تستخدم، من جهة، لتأكيد الانتماء الاجتماعي والقبلي، ومن جهة أخرى، لتمييز وضعيات عمرية أو جنسية معينة، لا سيما لدى النساء. يمثل الوشم إحدى الطرق التي ابتكرها الإنسان، وذلك بوصفه نشاطا سرديا بامتياز، يقدم من خلاله الواشم أفكاره وإحساساته على جسد، يعد الحامل الفيزيائي أو المادي للوشوم، وفق طقس احتفالي ما، يتم خلاله دس مجموعة مواد داخل الجسد تلوينا وتلميعا في بعض الأحيان وتشويها له أحيانا أخرى[18].

وقد ارتبطت أشكال الوشم عند الأمازيغ بالتنظيم الاجتماعي والقبلي، بحيث تختلف رموزه وأماكنه من منطقة إلى أخرى، ومن قبيلة إلى أخرى. وفي الغالب، كانت النساء هن الحاملات الأساسيات لهذا التراث الجسدي، حيث تنقش الرموز على الجبهة، الذقن، اليدين، أو الصدر، حسب الدور الاجتماعي أو المرحلة العمرية. فالعروس، على سبيل المثال، كانت تتوشم برموز محددة قبل الزواج، فيما يتغير الوشم بعد الإنجاب ليعكس انتقالها إلى مرحلة الأنوثة الناضجة استخدم الوشم أيضا بهدف الحماية من جلبة الطبيعة وتطويعها له خصيصا أثناء القيام بالطقوس الدينية الخاصة بالقنص والحرب بهدف أن يحقق الواشم في المستقبل غنائما كثيرة من الحرب والقنص أو ينال القوة والشجاعة والمهارة من قوى خارقة.

ويسجل أن هذه الرموز كانت تحمل، إلى جانب بعدها الجمالي، بعدا علاجيا وسحريا. إذ يعتقد أن بعض أشكال الوشم تبعد الحسد، وتحمي من الأرواح الشريرة أو "العين"، خاصة حين يدمج فيها رموز هندسية معينة كالمثلثات أو النجوم. وتكمن أهمية هذه الرموز في كونها تمثل "لغة ثانية" للجسد، تقرأ ضمن سياقاتها الثقافية والاجتماعية والطقسية، ما يجعل من الوشم ممارسة سيميائية بامتياز، تتجاوز الجانب الجمالي إلى ما هو معرفي ووظيفي.

وعلى الرغم من تراجع هذه الممارسة في العصر الحديث، فإن بعض المناطق القروية ما تزال تحتفظ ببعض طقوسها، وإن كانت قد فقدت كثيرا من رمزيتها الأصلية. ومع دخول الإسلام وتغير البنى الاجتماعية، بدأ الوشم يتراجع تدريجيا، إلا أن آثاره ما تزال قائمة، سواء في النقوش أو في الذاكرة الجماعية[19].

يعد الجسد في الأنثروبولوجيا المعاصرة فضاء دلاليا مركزيا، تتقاطع فيه الرموز، الطقوس، والتمثلات الثقافية. ويشكل الوشم أحد أبرز التعابير الرمزية التي تنقش على هذا الجسد، معبرا عن انتماءات هوياتية، أو محطات وجودية، أو حتى معتقدات سحرية ومقدسة. ووفقا لهذا المنظور، لا يمكن فصل الجسد عن البنى الثقافية والرمزية التي يتشكل ضمنها، إذ يتحول إلى "نص بصري" يحمل شيفرات يتعين على الباحث تفكيكها ضمن سياقاتها الاجتماعية والتاريخية. فالسرد موجود في كل الأزمنة والأمكنة، وفي كل المجتمعات، يبدأ السرد مع التاريخ أو حتى مع الإنسانية ليس هناك من شعب دون سرد[20].

وتنحو مقاربة الوشم في الدراسات السيميولوجية إلى اعتباره ممارسة تحول الجسد إلى حامل للمعنى، حيث تصبح العلامة الوشمية بمثابة خطاب غير منطوق، يفصح عن الذات، الجماعة، والمعتقد. وهكذا، يتجاوز الوشم بعده الجمالي ليصبح حاملا لقيم اجتماعية، سرديات تاريخية، وأحيانا تمثلات ميثولوجية.

---

[18] عبد الكبير الخطيبي، الاسم العربي الجريح، تر محمد بنيس، منشورات الجمل، بيروت–بغداد، ط1، ص 72.

[19] لبيب الخضرا، م.س، ص 182.

[20] رولان بارث، النقد البنيوي للحكاية، تر أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت–باريس، ط1، 1988، ص 81.

وقد أشار لبيب الخضرا إلى أن الوشم يشكل نوعا من المتخيل الجماعي، وهو تجل لجسد متحول إلى نص رمزي، يترجم تحولات الثقافة وطقوس العبور، خصوصا عند النساء، اللواتي يمثلن بؤرة مركزية لهذا التعبير الجسدي. فغالبا ما يحمل الجسد الأنثوي برموز تمس مجالات التخصيب، الحماية، والتزين، ضمن نسق من التقاليد الراسخة التي تمنح الوشم مكانته داخل الذاكرة الجماعية[21].

وفي هذا الصدد، لا يمكن إغفال الطابع الانتقالي لبعض أشكال الوشم، إذ يرسم في محطات مفصلية من حياة الفرد، مثل البلوغ، الزواج، أو الأمومة، ما يجعله جزءا من طقوس المرور، التي يتغير فيها موقع الفرد ضمن البنية الاجتماعية. وبذلك، يصبح الجسد الموشوم سجلا بصريا لرحلة الإنسان الأمازيغي في مجتمعه، وحاملا للرموز التي تؤرخ لمروره عبر لحظات فاصلة في الحياة. نجد عبد الكبير الخطيبي يؤسس للهوية من خلال الوشم الأمازيغي الدال على تلاحم الجماعة وانسجامها، وابتكارها طرقا ورموزا في التواصل، وفي تمثل معتقدات هذه الجماعة وإيديولوجيتها[22].

رغم العمق الرمزي والاجتماعي الذي حازه الوشم في الثقافة الأمازيغية عبر القرون، فقد شهدت هذه الممارسة تراجعا ملحوظا مع تحول البنى الثقافية والدينية والاجتماعية، خاصة بعد الانتشار الواسع للإسلام، وما رافقه من تصور ديني يربط بين الوشم وممارسة غير مشروعة،[23] وقد شكل هذا التحريم عاملا أساسيا في انكماش الظاهرة ضمن المجتمعات الإسلامية ،خصوصا حين أصبح الوشم ينظر إليه كطقس مرفوض شرعا.

إلى جانب العامل الديني، ساهمت عوامل التمدن والتحديث في تقلص هذه الممارسة، خاصة مع تحول النظرة إلى الجسد بوصفه ملكية خاصة يجب الحفاظ على نظافتها و"طبيعتها". وبدأت النظرة التجميلية المعاصرة تفضل الجمال الصناعي على التعبير الرمزي، فحلت مستحضرات التجميل محل الرموز الوشمية التقليدية، وبدأت مراكز التجميل تقدم بدائل "نظيفة" تواكب النموذج الغربي للجسد الأنثوي. إن "عارضة الأزياء أو عارضة الجسد، لا تعرض جسدها حقا، ولا جمالها، وإنما تقدم شكلا محضا، أو نموذجا تم ضبطه بصفة مسبقة ومجردة، حيث ينحل المحسوس في الدال"[24]. إلا أن الوشم لم يختف تماما، بل أعاد تشكيل نفسه ضمن فضاءات جديدة، خاصة في المدن الكبرى، حيث أصبح يمارس بوصفه اختيارا شخصيا وفنيا، بعيدا عن الدلالات الجماعية التقليدية. ويظهر هذا التحول بوضوح في أنماط الوشم الحديثة التي تتبنى رموزا غير محلية، وتنفذ بأدوات وتقنيات معقمة تسوق عبر شبكات التواصل الاجتماعي. والجسد سواء كان مرسلا أو مستقبلا، فإنه ينتج المعاني دون هوادة ويعمل على دمج الإنسان بكل قوة داخل فضاء اجتماعي وثقافي معين[25].

ومع ذلك، ما يزال الوشم التقليدي يحتفظ بحضوره في بعض المناطق القروية، وإن بشكل أقل كثافة، بوصفه تعبيرا عن الانتماء إلى ذاكرة جمعية تختزل القيم والرموز العتيقة. ويعد هذا الاستمرار بمثابة مقاومة صامتة للتحديث الكاسح، ومحاولة للحفاظ على تماسك الهوية الثقافية في وجه العولمة الرمزية[26].

---

[21] لبيب الخضرا، م.س، ص 182.

[22] عبد الكبير الخطيبي، م.س، ص76.

[23] فؤاد كاظم، م.س، ص 8.

[24] إبراهيم الحيسن، الأيقونة والجسد، نماذج من الفن التشكيلي بالمغرب، منشورات جمعية الفكر التشكيلي، ط1، 2014، ص 11.

[25] دافيد لورتون، سوسيولوجيا الجسد، تر عياد أبلال وإدريس المحمدي، دار روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص 17.

[26] فؤاد كاظم، م.س، ص 8.

خاتمة

إن الوشم في الثقافة الأمازيغية ليس مجرد ممارسة جمالية أو عادة قديمة آيلة إلى الاندثار، بل هو خطاب بصري قائم بذاته، يعكس بنية ذهنية وثقافية مركبة، تتقاطع فيها عناصر الهوية، والرمز، والاعتقاد، والانتماء. فالمضامين التي تحملها الأشكال الموشومة على الجسد، من دوائر ونقاط ومثلثات، إنما تحيل إلى منظومة من المعاني الراسخة في الوعي الجمعي الأمازيغي، وتكشف عن علاقة خاصة بالجسد باعتباره فضاء للتعبير الرمزي والاجتماعي. ورغم أن مظاهر الوشم بدأت في التراجع بفعل التحولات الاجتماعية والدينية، فإنها ما تزال حاضرة في الذاكرة الثقافية وفي المتخيل الجماعي، مما يستدعي حفظها ودراستها كجزء من التراث الرمزي الذي يغني فهمنا للثقافة الأمازيغية ولتعددية التعبير الإنساني عن الهوية والمقدس والوجود.

يكشف تحليل الوشم في الثقافة الأمازيغية عن كون هذه الممارسة ليست عفوية أو مجرد تقليد جمالي، بل هي بناء رمزي دقيق، يعكس تصورات مجتمعية عميقة حول الجسد، والهوية، والنوع الاجتماعي. فالوشم الأمازيغي يعد بمثابة نص اجتماعي—جندري يكتب على الجسد، ويقرأ ضمن شبكة من العلاقات الثقافية التي تعيد إنتاج التراتبيات الرمزية والاجتماعية. ورغم تراجع هذه الممارسة بفعل التحولات الدينية والتحديثية، فإنها ما تزال حاضرة في الذاكرة الجمعية، تشهد على أزمنة كانت فيها المرأة موضوعا وفاعلا في نفس الوقت ضمن نظام سيميولوجي معقد. إن استعادة الوشم في بعده الأنثروبولوجي والسوسيولوجي اليوم ليس فقط فعل حفظ لتراث مهدد بالاندثار، بل هو أيضا تفكيك نقدي لتمثلات الجندر في المجتمعات التقليدية، وإعادة اعتبار للجسد باعتباره أرشيفا حيا للمعنى والتاريخ.

المراجع والمصادر:

✓ أولا: المراجع العربية

المعاجم

- ابن منظور، لسان العرب، ج 12. بيروت، 1412هـ/1992م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2004.

الكتب

- الحيسن إبراهيم، الأيقونة والجسد: نماذج من الفن التشكيلي بالمغرب، ط1، منشورات جمعية الفكر التشكيلي، 2014.
- البهلنسي عفيف، النقد الفني وقراءة الصورة، القاهرة: دار الوليد، 1997.
- الخطيبي عبد الكبير، الاسم العربي الجريح، ترجمة محمد بنيس. ط1، بيروت–بغداد: منشورات الجمل، دون تاريخ.
- لورتون دافيد، سوسيولوجيا الجسد، ترجمة عياد أبلال وإدريس المحمدي، ط1، القاهرة: دار روافد للنشر والتوزيع، 2013.
- بارث رولان، النقد البنيوي للحكاية، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط1، بيروت–باريس: منشورات عويدات، 1988.

المقالات والدوريات

- الخضرا لبيب، "الوشم ووحدة المتخايل العربي." مجلة التراث الشعبي، العدد 10، (1980) .
- عامر، سوسن. "الوشم في الفن الشعبي." مجلة التراث الشعبي، السنة التاسعة، العدد 10، (1987).
- كاظم فؤاد، "الوشم: دراسة تاريخية في التقاليد الدينية." مجلة الماورديات العلمية، العدد 6،(1979).
- كركوش فتيحة، "مدخل أنثروبولوجي لممارسة الوشم." مجلة العلوم الإنسانية، (2015) .
- يخلف فايزة، "التواصل غير اللغوي: الدلالة الثقافية للوشم عند المرأة القبائية." مجلة الممارسات اللغوية (ديسمبر 2017).

✓ ثانيا: المراجع الأجنبية

- Gsell, S. Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Vol. VI. Paris: Hachette, n.d.
- Journal Articles
- Gobert, E. G. "Remarques sur les tatouages Nord Africans." Revue Africaine (1956).
- Herbert, J. "Les tatouages Nord African." R.A.F, (1931).